مدينة صحار العمانية وعلاقتها بطرق الحرير البحرية

الدكتورة مونيك كارفران

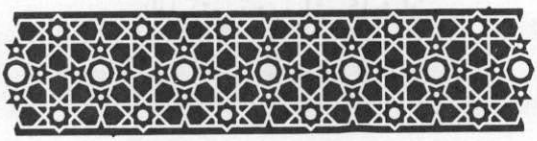

مدينة صحار العمانية وعلاقتها بطرق الحرير البحرية

يمتد تاريخ مدينة صحار إلى أعماق التاريخ ، وتعتبر بحكم موقعها الجغرافي والتجاري ، همزة الوصل بين بلدان الشرق الأقصى والأدنى منذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحديث ، ويؤكد هذا الأمر مقولة الجغرافي العربي الكبير (المقدسي) الذي عاش في القرن العاشر ، حيث وصف صحار بأنها «المدخل إلى الصين ، ومخزن الشرق ومصدر عون ومساندة اليمن» .

لم يتضح الكثير من تاريخ صحار قبل وبعد عصر ازدهارها في ذلك الوقت ، ولم تحدد العوامل التي ساعدت على ظهور هذا التطور الكبير في القرنين التاسع والعاشر ، وكذلك لم تعرف أسباب الأفول المفاجىء لتلك الحضارة . وحسب مصادر مرحلة ما قبل عصر الاسلام . فلا توجد بيانات مؤكدة تشير إلى كيفية نشوء مدينة صحار .

وبعد قيام كثير من حملات التنقيب عن الآثار بين عامي ١٩٨٠ — ١٩٨٦ ، برزت دلائل عديدة ساعدت كثيراً في توضيح تلك العوامل . وطبقاً لتلك الاستكشافات الاثرية وإعادة تدقيق تلك المصادر المكتوبة . ويمكن على ضوء ذلك تقسيم مراحل تاريخ صحار الرئيسية منذ نشأتها وحتى العصر الوسيط إلى ثلاثة مراحل .

المرحلة الأولى : تشمل تاريخ صحار ما قبل الاسلام ومدتها من ستة إلى سبعة قرون .

المرحلة الثانية : تشمل فترة الازدهار الاقتصادي الكبير للمدينة وهي الفترة ما بعد ظهور الاسلام بستة قرون وحتى القرن الثالث عشر الميلادي .

المرحلة الثالثة : تبين أسباب التدهور الاقتصادي للمدينة وذلك ما بين القرنين الثالث عشر وبداية السابع عشر .

وخلال تلك القرون السبعة عشرة ، كانت المناطق المحيطة بصحار ، وهي الخليج والمحيط الهندي تشهد حركة ملاحية تجارية نشطة بين الشرق والغرب .

وسوف نرى بأن تاريخ صحار يعتمد وبشكل كلي على تدفق تلك التجارة، حيث كان لها الاثر الكبير في تطور وقيام حضارة صحار .

المرحلة الأولى :

لقد كشفت التنقيبات الاثرية التي نفذت في صحار ما بين عامي ١٩٨٠ — ١٩٨٦ على أن المدينة أسست قبل العصر الاسلامي بستة أو سبعة قرون . ورغم أن المصادر المكتوبة والنقوش الاثرية لم توضح ذلك بشكل مناسب، إلا أننا سنحاول فهم ذلك من خلال القاء الضوء على ما كان يحدث في تلك الفترة ، في عمان ذاتها بالاضافة إلى المناطق المحيطة المرتبطة بها وخاصة الجزيرة العربية وايران والمحيط الهندي .

مع بزوغ وتطور الحضارة في مدينة صحار ، كانت عمان تخضع للنفوذ الفارسي لمدة لا تقل عن ستة قرون ، حيث هزمها أول حاكم من سلالة الاخمينيين ، الملك (سايروس) . وفي حين كان هدفه مد السيطرة على المناطق المجاورة واخضاع الشعوب لحكمه ، كان هدف ملوك البارثيين الذين حكموا الجزيرة العربية بعد ذلك بأربعة قرون هو السيطرة على التجارة ، حيث ان التجارة بين الشرق والغرب شهدت تقدماً واسعاً وذلك في القرن الاخير قبل الميلاد . ونتيجة لذلك أصبحت الضرائب والجمارك التي يتم تحصيلها على البضائع أكثر أهمية وقيمة من تلك الجزيات المفروضة على الشعوب الخاضعة للحكم .

ولا شك أن الوثائق التي تبين السياسة التجارية للامبراطورية الرومانية في تلك الفترة وثائق كثيرة ، حيث نشطت التجارة في البحر الأحمر وفي معظم المنافذ البحرية في المنطقة . لذلك نراهم قد اقاموا الخانات أي الفنادق في هذه المنطقة . ورغم أن بعضها لا يزال غير مكتشف ، إلا أن البعض الآخر تم التنقيب والكشف عنه ومثال ذلك (القصر القديم) .

ولعل الاكتشافات الدالة على صحار في تلك الحقبة الزمنية قبل العصر الاسلامي والدلائل التاريخية التي بينتها تلك الاكتشافات تتميز بأهمية خاصة

وهنا سيتم الحديث عن اهم المعلومات التي تم التوصل إليها من خلال الأطوار الزمنية لاحتلال مدينة صحار ، وذلك بدءا من تأسيسها وحتى بداية العصر الاسلامي .

من خلال التنقيبات الاثرية في صحار ، تم اكتشاف قطع عديدة من السيراميك المتيميز جداً حيث بيّن علماء الحفريات الاثرية بأن هذه القطع هي أصلاً أوعية فخارية مصقولة ذات لون احمر ، تم صنعها في معامل هندية ، وهي عبارة عن أوعية مقلدة للنموذج الايطالي الأصلي الذي انتشر في الهند ما بين سنة (٥٠) قبل الميلاد وسنة (٥٠) ميلادية ، حيث كان يستبدله التجار الرومان بالحرير في موانىء الهند .

ولقد اثبت وجود هذا السيراميك في صحار . بأن الهند كان لها دور في التجارة مع صحار وذلك منذ تأسيسها . وقد شملت تجارتهم كذلك استيراد الحرير الخام ، حيث كانت تتم حياكته في مشاغل ايرانية . وقد استمرت صحار في استيراد السلع الخزفية حتى القرن الثاني أو الثالث الميلادي ، حيث بدأت نوعية هذه السلع بالاختفاء بشكل سريع .

وفي اطوار لاحقة تعود إلى عهد الساسانيين ، ظهر نوع آخر من الخزف وهو عبارة عن أوعية صلبة ذات لون يميل إلى السواد أو بلون أسود رمادي ومغلفة بطبقة زجاجية . وقد ظهرت هذه الأوعية لأول مرة بعدما تم استيرادها من الصين إلى شبه الجزيرة العربية على ايدي التجار العرب الذين كانوا يقومون بشحنها من الموانىء الصينية واحضارها إلى بلادهم .

وما عدا استعمال هذه الأوعية فإنه من المرجح أن تكون قد استخدمت لحفظ المواد القابلة للتلف .

وهنا أصبح من الواضح ان هذه القطع الخزفية المكتشفة في صحار تقف شاهداً على الملاحة العمانية المباشرة باتجاه الصين وبالعكس ، وذلك منذ بداية القرن الرابع أو الخامس الميلادي .

لذلك فإن الاكتشافات الاثرية التي شهدت على صحار في الفترة التي سبقت العهد الاسلامي تعتبر علامة هامة وراسخة في دراسة الطرق البحرية

قبل العصر الاسلامي، حيث ان صحار هي أول منفذ بحري يتم تحديده واكتشافه في المنطقة .

لقد بدأت حياة مدينة صحار الفعلية مع بداية التقويم الميلادي ، عندما بدأ ظهور التبادل التجاري بين روما والهند والصين لأول مرة في التاريخ . وحيث تم تأسيس المستودعات التجارية على شواطىء البحر الأحمر ، كانت موانىء (عدن وسوقطرة) من اهم الموانى في الجنوب . وعلى الطرف الآخر من الخليج كانت توجد (جيرا) وغيرها من الموانىء .

ولهذا كان لابد من وجود ميناء بحري على الساحل الشرقي للجزيرة العربية من اجل تسهيل عملية الشحن البحري ما بين الهند وهذه المنطقة .

وهنا برز ميناء صحار لتلبية الحاجة والرغبة في تطوير الاقتصاد ، وكان ذلك إما بمبادرة من التجار أو السلطات السياسية في ذلك الوقت في تلك المدينة ، حيث ان ذلك الامر لم يتضح في التاريخ العماني القديم .

المرحلة الثانية :

ان الحديث عن المرحلة الثانية من تاريخ صحار يبدأ مع بزوغ فجر الاسلام في المنطقة . ورغم أن انتشار الاسلام في عمان لم يكن له تأثير سريع على حياة مدينة صحار في بداية الأمر ، إلا أن عوامل ومظاهر التقدم والازدهار بقي أثرها واضحا على المدينة .

ومن ضمن هذه المؤشرات ، التنقيب عن النحاس الذي يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر وكذلك الزراعة المنتشرة في المنطقة الداخلية بشكل واسع ، وذلك بفضل الاستمرار في صيانة شبكة قنوات الري .

ولعل النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الجديد الذي تعود جذوره إلى القرن الثامن الميلادي كان له اثر كبير في تعزيز التفاعل بين الممتلكات الحقيقية للمدينة وموارد التنقيب عن النحاس من جهة . وموارد النقل البحري من جهة ثانية .

لذلك تعزز الوضع الاقتصادي في الفترة ما بين القرنين الثامن والعاشر . ومما ساهم في ذلك أيضاً امكانية السفر بين المغرب والهند دون مواجهة حدود

فاصلة تعيق حركة الملاحة . والأهم من ذلك وجود عوامل مشتركة أهمها الدين واللغة ، والتي تساعد في سهولة الانتقال والتفاهم .

وعلاوة على ذلك ، فإن الدين الاسلامي يشجع التجارة التي تؤدي إلى ازدهار المجتمع من خلال الكسب المشروع لكل مسلم حيث يبارك الله الثروة التي يجمعها الانسان نتيجة لسعيه وجهده .

وفي ظل هذا الوضع المزدهر ، برز أصحاب السفن والقباطنة العمانيون وأصبح لهم شهرة عالمية ، وقد وصف المؤرخ العماني (ابو سفيان محبوب بن الرحيل) ، الذي عاش في عمان عندما كان يحكمها الامام الاباضي (المهنا بن جيفر)، وقد صف اثنان من هؤلاء التجار العمانيين في بداية القرن الثاني الهجري احد هؤلاء التجار بانه يسمى (أبو عبيد عبد الله بن القاسم) ويعرف بالصغير وينتمي إلى بلدة تجارية صغيرة في عمان تسمى (بسيا) أو (نسيا) وبالاضافة لكونه احد ائمة شيوخ الأباضية في تلك الفترة ، فقد كان تاجراً مشهوراً ، حيث كان يعمل بالتجارة مع الصين . والتي ثبت انه قام بنفسه بالسفر إليها قبل عام ٧٥٨ م .

وهناك حكاية تتحدث عن علاقته بالتجار الآخرين في تجارة خشب الصبر، حيث كان له شركاء في تلك التجارة ، وكان من عادة شركائه ان يبخسوا أسعار البضاعة التي يرغبون بشرائها حتى يحصلوا عليها بأقل الأثمان من البائع ، وإذا حصل ذلك واشتروها فإنهم عند بيعها يمتدحون البضاعة نفسها حتى يبيعوها بأعلى الأسعار . وبذلك يحققون أرباحاً كثيرة . وحيث ان هذا الأسلوب في التعامل التجاري لم يكن ليرضى الشيخ (عبد الله بن القاسم) عمل على فسخ شراكته معهم .

وقد قضى شيخنا النصف الثاني من حياته في مكه المكرمة حيث تزوج من امرأة ثرية واستقر هناك .

أما عن التاجر العماني الآخر ، فلم يذكر المؤرخ العماني (ابو سفيان) الكثير عنه ، وكل ما نعرفه انه كان يعيش في البصرة في أواخر القرن الثامن وبداية التاسع حيث كان يعيش فيها اثنان من أئمة الأباضية من أقاربه .

وهذا التاجر الثري كان يدعى (نزار بن ميمون) وقد قام برحلة إلى الصين متوجهاً في الغالب من البصرة .

وهناك ذكر لبعثة تجارية عمانية أخرى ورد في كتاب «عجائب الهند» لمؤلفه القبطان (بوزورغ بن شريار الهرمزي) .

بالاضافة لذلك ، فقد وردت رواية عن ذلك اليهودي اسحق الذي كان يعمل بالتجارة في عمان ، ونتيجة لتشاجره مع يهودي آخر ترك عمان ولم يكن معه سوى مائتي دينار ، وكان ذلك عام ٩١٢ .

وبعد مرور ثلاثين سنة عاد إلى عمان على ظهر سفينة تجارية ومعه شحنة من البضائع فيها المسك بقيمة مليون دينار، وكذلك صفقة من الحرير تعادل مليون دينار، بالاضافة إلى الخزف والقطع الأخرى المصنوعة يدوياً ذات القيمة العالية . وقد جلب هذه البضاعة من الصين .

ولعل هذه الخلفية التاريخية تؤكد على الدور الكبير الذي لعبته مدينة صحار، المدينة الرئيسية في عمان ، في مجال التجارة ، حيث كان يقطنها العديد من التجار الاثرياء وهناك شروحات تبين نوعية البيوت التي كانت موجودة في صحار في ذلك الوقت حيث كانت متعددة الطوابق ، مبنية من الطوب الأحمر وخشب الساج .

وكانت هذه البيوت موجودة على أطراف المدينة ، بينما كان يعيش في وسطها الحرفيين وأصحاب المحلات التجارية الصغيرة .

ولا غرابة في أن تكون بيوت هؤلاء التجار الاثرياء وأصحاب السفن مملوءة ومزينة بالتحف والأشياء النادرة التي كانوا يجلبونها معهم من الهند وافريقيا وبشكل خاص من الصين .

ونتيجة للتنقيب الاثري الذي نفذ في صحار عام ١٩٨٦ تم الكشف عن أحد هذه البيوت، حيث وجدت بعض القطع الخزفية والفخارية والزجاجية في ساحة البيت بجانب بئر للماء . وان دلت على شيء فإن هذه القطع تدل على فخامة الأوعية التي كان يستعملها اثرياء صحار في بيوتهم وغلاء ثمنها في ذلك الوقت (القرن العاشر الميلادي) .

وقد مكنت الحفريات الاثرية التي اجريت في مدينة صحار وضواحيها من الكشف عن أنواع الخزف والسلع الأخرى التي تم استيرادها إلى صحار في ذلك الوقت .

ومن الدلائل الشاهدة على مرور طرق الحرير في صحار وجود ذلك الخزف الصيني ، حيث ان من الصعب اكتشاف وجود الحرير نفسه بعد مضي هذه القرون ، وذلك بسبب الرطوبة والملوحة المنتشرة في المنطقة والتي تؤثر على الحرير . وعلى كل حال فإن الحرير الخام الجاهز للحياكة كان يشكل جزءاً كبيراً من شحنات السفن العمانية وقد ورد في كتاب (عجائب الهند) ذكر لسفينة عمانية كانت تحمل شحنة كاملة من المسك والحرير والخزف المستورد .

وهناك دليل غير مباشر على استيراد الحرير إلى منطقة الخليج وخاصة إلى صحار . ألا وهو انتشار صناعة حياكة الحرير في المناطق الجنوبية من العراق وايران . حيث كان الكثير من الفرس وأهالي خوزستان يمتلكون العديد من مشاغل حياكة الحرير .

واشتهر منهم اثنان هما (شوش) و(يازد) حيث أصبحت لهما شهرة واسعة بسبب تعاملهم بنوع محدد من الحرير والأقمشة الحريرية الممتازة ذات الجودة العالية .

ولو أن ملوك (الساسان) أقاموا هذه المشاغل قبل الاسلام لشهدت تطوراً كبيراً فيما بين القرنين الثامن والتاسع واستمرت في تطورها . لكن الحقيقة انهم لم يبدوا أي اهتمام ، ولو عرفنا أن مدينة (شيراز) الايرانية لم تعرف الحرير وحياكته إلا في بداية العصر الإسلامي ، لامكننا أن ندرك الحقيقة السابقة ، ألا وهي عدم اهتمام ملوك الساسان بالحرير.

وعلى ما يبدو فان ايران بدأت في أقلمة شجرة التوت ودودة القز المنتجة للحرير على وجه السرعة . وقد ذكر (ابن البلخي) بأن مقاطعة (يزد) الايرانية بدأت في انتاج الحرير في بداية القرن الثاني عشر ، حيث تتوفر شجرة التوت بكثرة في هذا الاقليم .

وبعد أقل من قرنين من الزمان بين (أبو الفداء) بأن معظم الأشجار المزروعة

في بلدة (منبج) العراقية هي شجرة التوت ، وذلك بهدف انتاج الحرير.

وهناك مصدر آخر أشار إلى أن (جينويس) ادخل الملابس الحريرية إلى (جيلان) وهي منطقة تقع بالقرب من بحر قزوين في شمال ايران وذلك خلال القرن الرابع عشر الميلادي.

ونتيجة لذلك بات من الممكن القول بأن الأقاليم الاسلامية بدأت في تخفيف استيراد الحرير الخام تدريجياً ، في حين زادوا من صادراتهم للأقمشة والملابس الحريرية ، حيث كان من أولويات الصفويين واهتماماتهم التركيز على تلك الصادرات ، وكان ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

المرحلة الثالثة :

مع بداية القرن العاشر بدأت حضارة مدينة صحار بالتدهور وبشكل مفاجيء، وفي دراسة قام بها (اندرو ويليامسون) بعنوان «صحار والملاحة العمانية في المحيط الهندي» . فإنه وطبقاً لهذه الدراسة التي تمت وبدون الاعتماد على الاكتشافات الاثرية فإن مما لا شك فيه ان جزءاً كبيراً من السكان تركوا معظم مناطق المدينة خلال فترة وجيزة وكان ذلك على الأرجح قبل عام ٣٩٠ ميلادية ، وانه تم التخلي عن حوالي ثلثي المناطق الزراعية المحيطة بالمدينة وتركها بدون زراعة بعد ذلك بوقت قصير .

ويرى ويليامسون أن أسباب التدهور والانحطاط المفاجيء الذي حصل لتلك الحضارة المزدهرة في صحار في ذلك الوقت تعود إلى تقلبات الحكم في الامبراطورية الاسلامية ونتيجة لاستخدام القوة في معظم الحالات.

وقد تأثرت عمان بالحملات والغزوات التي كان أسوأها في عام ٩٧٠ ، حيث قام عساكر البويهيين بمهاجمة البلاد وسلبوا وذبحوا الكثير من أهلها . وقد خلص ويليامسون في تحليله لتاريخ مدينة صحار مؤكداً على أن المدينة شهدت تدهوراً وانحساراً خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

ورغم ما ورد على لسان ويليامسون «إلا أن الاستكشافات الاثرية ومراجعة المصادر المكتوبة والمتوفرة عن هذا الموضوع ، تعطي فكرة مختلفة كلياً عن تاريخ صحار خلال هذين القرنين (١١ ـ ١٢)».

ومن اجل اثبات ذلك لابد من جولة سريعة نهدف من خلالها الاطلاع على اكثر المصادر الموثوقة والتي تحدثت عن مدينة صحار.

ومن أبرز الأسماء في هذا المجال (المقدسي) و(ابن حوقل) و(الاصطخري) . حيث أشار هؤلاء الجغرافيين إلى تلك الفترة المزدهرة من تاريخ صحار في القرن العاشر الميلادي ، ويؤكد هذه الحقيقة الادلة التي تم التوصل إليها نتيجة للاستكشافات الاثرية .

وينبغي لنا أن نذكر بأن المقدسي وابن حوقل قاما بزيارة لمدينة صحار مما يؤكد ما ورد عنهم حول تاريخ المدينة .

وقد أكد (الادريسي) بأن المدينة كانت لا تزال مزدهرة حتى القرن الثاني عشر ، حيث كانت السفن تبحر من مينائها باتجاه الصين ، ولكن التجار وأصحاب السفن تركوا المدينة واتجهوا إلى ميناء عدن وذلك بسبب الدمار والخسائر التي لحقت بطواقم سفنهم وبضاعتهم من جراء مهاجمة (أمير قيس) لها .

وقد هاجم جنود الأمير ميناء (مكران) واستولوا على اثنتي عشرة سفينة ، وكان ذلك في بداية القرن الحادي عشر.

وسوف يتطرق الحديث لمقالة الأدريسي لاحقاً لبحثها بالتفصيل .

وقد تحدث (ابن المجاور) عن حضارة صحار ، حيث كان يعرف اليمن والجزيرة العربية وعاش في الفترة الواقعة في منتصف القرن الثالث عشر .

فقد أشار إلى وجود اثني عشر ألف منزل في المدينة ، حيث كان كل بحار يعيش في منزل منفصل . وكانت البيوت مبنية من الطوب والآجر وخشب الساج .

ولكن الروايات تقول ان تلك البيوت دمرت فيما بعد ، وسكن الجن في القلاع المحيطة بالمدينة ، وذلك حسبما ورد عن (ويليامسون) .

ومع بداية القرن الرابع عشر ، جاء المؤرخ المعروف (أبو الفدا) ، وقال عن صحار بأنها «مدينة صغيرة مدمرة» . وفي ذلك الوقت وبسبب هذا الدمار ، فإن زيارة المدينة اصبحت عديمة الجدوى ، حتى ان ابن بطوطة ، الرحالة

المشهور لم يذكر مدينة صحار فيما بعد ذلك التاريخ .

ولعل المصادر المكتوبة توضح انه وبالرغم من مضايقات أمير قيس لسفن وبحارة صحار ومهاجمة مينائها واستيلائه على بعض السفن والبضائع خلال القرن الثاني عشر ، إلا أن المدينة بقيت تحظى بدرجة عالية من التطور والازدهار حتى منتصف القرن الثالث عشر عندما تركها معظم أهلها وبدأت حضارتها بالنكوس .

وتوضح الدراسة التي أجريت للطبقات الجيولوجية في صحار هذا التحول التدريجي في تاريخ المدينة ، وخاصة ذلك المسح الذي تم في وسط المدينة ، حيث يعكس الفترة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر لتاريخ صحار .

ومن خلال تلك المسوحات لوحظ أن هناك جدراناً مبنية بشكل مرتب استعملت فيها قطع الطوب الأحمر المخلوط بالسيراميك ، وأن معظم هذا الطوب تم استيراده من الصين ، والهند وبعض الدول الاسلامية مثل ايران والعراق .

ولوحظ كذلك أن فوق هذه الطبقات مباني بسيطة وقليلة العدد استعمل في بنائها قطع الطوب المصنوعة من الطين . وقد كشفت هذه المباني عن احتلال المدينة واعمال السلب والنهب والتخريب التي كان يمارسها المحتلون .

ورغم أن القطع الاثرية من التحف والمشغولات اليدوية التي وجدت في هذه الطبقات الأرضية دلت على انتهاء صناعة السيراميك في المدينة ، إلا أنه لم يتم العثور على اية قطعة مستوردة في تلك الطبقات .

وبدت صحار في ذلك الوقت كمدينة اثرية صغيرة ، هجرها جميع سكانها تاركين وراءهم مناطق المدينة الفاخرة الزاخرة بالعمران والحضارة .

الأسباب الكامنة وراء تدهور حضارة صحار :

لقد ذكر آنفاً ما ورد على لسان الادرسي فيما يتعلق بتهديد أمراء قيس للملاحة العمانية ومهاجمة السفن التي كانت تبحر في الخليج وسلبها ونهبها . وحسب وجهة نظر ذلك المؤرخ المغربي الكبير ، فإن هذه الأعمال كانت بمثابة عمل من اعمال القرصنة البحرية ، وهي المحاولة الأولى والمنظمة بذلك الشكل

بهدف السيطرة على التجارة مع الهند والصين وذلك باستخدام الاسطول الحربي حيث كان يتمركز أمراء قيس في مواقعهم المحصنة في جزيرة قيس ، ويتولون منها تنظيم عمليات المهاجمة والتخريب للسفن المارة في الخليج .

وقد نجح أمراء قيس في السيطرة على الوضع والتحكم بالملاحة لعدة عقود من الزمن ، حتى سقطت جزيرتهم في عام (١٢٢٩) على أيدي امراء هرمز . وقد اهتم هؤلاء كذلك بالتجارة واستطاعوا أن ينشئوا امبراطورية تجارية وصلت قمة ازدهارها وتطورها في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، حيث خضعت بعدها لحكم البرتغاليين . وبحكم موقعها ضمن تلك الامبراطوريات تأثرت عمان بازدهار تلك الحضارات وتطور تجارتها . وقد ورد سابقاً كيف ترك السكان ميناء صحار في الفترة خلال القرن الثاني عشر الميلادي .

وهناك احداث أخرى توضح المحاولات التي قام بها أمراء الساحل الايراني بهدف السيطرة على التجارة في منطقة الخليج .

وأول تلك المحاولات جرت في عام (١٢٦٢) حيث قدم الامير الهرمزي الثاني عشر والمعروف باسم (ركن الدين) ، من (قلهات) ونزل في جنوب ساحل الباطنة ، وكان هدفه ضم هذه البلاد لامارته .

وقد حاول هذا الأمير أن يغري حاكم المنطقة النبهاني ، (أبو المعالي كهلان ابن نبهان) ليقف بجانبه في محاولته تلك ، وقد باءت محاولاته بالفشل حيث لم يتمكن من كسب مساعدة ذلك الحاكم ، مما أدى بالأمير الهرمزي إلى اللجوء إلى زعماء القبائل البدوية واستطاع حشد صفوفهم إلى جانبه عن طريق اغرائهم بالهدايا .

وقد توجه بتلك الحشود إلى (ظفار) يسلبون ويقتلون كل من يلاقيهم في الطريق إليها وبعد عودة هذا الأمير مع حشوده ومغادرته عمان ، واجهوا صعوبات كبيرة على طول طريق عودتهم إلى هرمز ، حيث فقدوا أكثر من خمسة آلاف (٥٠٠٠) رجل من الجيش .

وبعد أربعة عشر عاماً من المحاولة السابقة قام أربعة آلاف وخمسمائة جندي (٤٥٠٠) قادمين من (شيراز) بغزو عمان بناء على أوامر من امرائهم وهم (فخر

الدين احمد بن الداية) و(شهاب الدين) وقد شهدت عمان اضطهاداً فظيعاً على أيدي هؤلاء الغزاة استمر لمدة أربعة أشهر ، حيث قاموا بمحاصرة (بهلا) ولكن دون نتيجة ، وبسبب أعمالهم العدوانية وحصارهم انتشرت المجاعة في البلاد ، وكانت تحت حكم الملك النبهاني (عمر بن نبهان) إلا أن محاولاتهم للسيطرة على البلاد باءت بالفشل الذريع وارتدوا على اعقابهم منهزمين نتيجة لصمود أهل هذه البلاد .

وقد أشار ابن بطوطة إلى تلك الحملات العسكرية بهدف اخضاع عمان ، حيث نجح بعضها وفشل البعض الآخر ، عندما ذكر بأن أفضل مناطق عمان خضعت لامراء هرمز.

ولم يكن الهدف من تلك الغزوات التي جرت في القرن الثالث عشر السيطرة ومد الحكم على مناطق جديدة ، بل على العكس ، إذ كان الهدف الحقيقي هو الاهتمام بالسيطرة على التجارة البحرية التي كانت سائدة بين منطقة الخليج والشرق الأقصى في ذلك الوقت وحيث ان تلك التجارة البحرية كانت تدر أرباحاً هائلة على أصحابها ، وقد تطورت بشكل كبير منذ القرن الثامن الميلادي ، ونظراً لما يترتب على البضائع التجارية من ضرائب وجمارك ، فقد طمع امراء وحكام مناطق الجنوب الايراني بالحصول على تلك الفوائد المترتبة على تلك البضائع الثمينة التي كانت تقوم السفن القادمة من الصين بتفريغها في موانىء المنطقة .

لذلك عملوا على وضع نظام قسري لاجبار السفن التجارية بالمرور في موانيهم التي أقاموا فيها مراكز جمركية لفرض الرسوم على البضائع المحملة .

وكانوا يقومون بمصادرة الأشياء الثمينة ، ويفرضون الضرائب على بقية البضائع بطريقة عشوائية يتم الاتفاق على قيمتها بدون تنزيل البضائع وتحديد قيمتها .

ونتيجة لتلك الممارسات . فقد ادى هذا النظام في فرض الجمارك والضرائب على السفن التجارية إلى الممارسة السياسية من قبل هؤلاء الامراء والحكام الراغبين باحتكار التجارة في المنطقة .

ولقد أصبح من الضروري في نظر هؤلاء السيطرة على المناطق الساحلية للخليج وخاصة تلك المناطق التي لها موانيء قديمة مرتبطة مع الطرق التجارية الممتدة إلى بلدان العالم البعيدة ، وأهم هذه المنافذ البحرية هي (ظفار) ومنطقة (قلهات) صور وصحار .

وكان الهدف من ذلك هو منع السفن التجارية من التوجه إلى مناطق أخرى لبيع البضائع التجارية المحمولة ، وبذلك يستطيعون السيطرة عليها واجبارها على المرور بموانئهم والموانىء التي تخضع لهم من اجل تحصيل الرسوم والجمارك على تلك السفن .

وقد حاول ملوك النباهنة صد الغزاة ومقاومتهم حتى لا تهزم عمان وتخضع لسيطرة الغزاة ومن اجل ذلك أقاموا الحصون والقلاع على أطراف الجبال . . ومن أشهر هذه القلاع المعروفة بوادي عندام ووادي قانت وحورة برغة .

ولعل قلعة حورة برغة القريبة من صحار كانت تشكل ملجأ لعدد كبير من سكان المنطقة حيث بنيت على قمة تلة صخرية شاهقة وقوية .

ورغم تلك المقاومة التي أبداها النبهانيون إلا أن السواحل العمانية سقطت في أيدي امراء هرمز ، وقد كان لسيطرتهم آثار سلبية وتدميرية على عمان وخاصة صحار .

وقد دلت الحفريات الاثرية التي اجريت في صحار على الاقتران والتلازم الذي كان بين نهاية فترة الازدهار الاقتصادي للمدينة وبناء القلاع والحصون والتي بنيت من اجل مقاومة امراء هرمز . وكذلك دلت الحفريات الاثرية على أن قلعة صحار بنيت على بقايا المباني السكنية التي كانت تعود ملكيتها لاغنياء المدينة والواقعة في الجزء الجنوبي للمدينة ، وقد استعملت حجارة تلك البيوت في بناء الحصن .

وحقيقة الأمر أن هذا التدهور الحضاري والاقتصادي للمدينة استمر طيلة فترة حكم امراء هرمز وسيطرتهم على منطقة الخليج وامتد حتى جاء البرتغاليون وسيطروا عليها في القرن السادس عشر الميلادي .

ورغم أن البرتغاليين أبقوا على سيطرتهم وتحكمهم بالتجارة ومنعوا السفن

القادمة من الشرق الأقصى في المرور والرسو في ميناء صحار ، إلا انهم بدأوا في تخفيف القيود والضغط الاقتصادي على المنطقة مع بداية القرن السابع عشر حيث عاودت السفن القادمة من الهند لترسو في ميناء صحار.

وفي عام (١٦٢٢) عاود البرتغاليون هجومهم على صحار واحتلوها وذلك بهدف منع تجارها وأهاليها من التأثير على المصالح التجارية في المنطقة .

وبقي الأمر على هذا الوضع حتى جاء (الامام ناصر بن مرشد) وطرد البرتغاليين وامراء هرمز من عمان ، وعلى اثر ذلك استعاد ميناء صحار أهميته التجارية البحرية . واثبتت الحفريات الاثرية في طبقات الأرض لمدينة صحار استعادتها للتجارة مع الصين واليابان . واثبتت هذه الحفريات كذلك الفترة السابقة التي شهدت تدهور وانحطاط حضارة المدينة وازدهارها التجاري والعمراني .

ولو رجعنا إلى فترة الحكم الاسلامي في بداية القرن العاشر الميلادي ، لوجدنا أن الفرضية التي تشير إلى تدهور حضارة صحار في تلك الفترة بسبب المشاكل السياسية التي كانت تسود الدولة الاسلامية هي فرضية غير مؤكدة ، حيث لم تثبتها المصادر المكتوبة ولا حتى الاكتشافات الاثرية في المنطقة .

ورغم أن الدولة الاسلامية كانت تقوم بإرسال حملات تأديبية خلال القرنين التاسع والعاشر إلا أنه لم يكن لها اثر كبير على مدينة صحار حيث ان تجارتها لم تتأثر بتلك الحملات . ولا شك أن عمان ، وخاصة مدينة صحار تأثرت بشكل كبير بسبب خضوعها لحكم امراء قيس وامراء هرمز الذين كان هدفهم الأساسي السيطرة على التجارة البحرية للمنطقة .

وقد أشار (الادريسي) في القرن الثاني عشر إلى الدمار والاستيلاء على السفن العمانية على أيدي امراء قيس . حيث كانوا يحرقون أو يستولون على السفن وبضائعها بحيث أصبحت الطرق والموانيء البحرية غير آمنة . وقد أدى ذلك إلى تجنب السفن التجارية المرور بميناء صحار . ويؤكد ذلك استيراد الخزف الصيني الذي تضاءلت كمياته المستوردة خلال القرن الثاني عشر عما كانت عليه في القرون السابقة . ما بين القرن التاسع والحادي عشر ـ بشكل خاص .

ورغم كل ما حدث وتعرضت له عمان وخاصة مدينة صحار من حملات وتخريب ، إلا أن التدهور الحقيقي في حضارتها لم يحدث إلا بعد قرنين من الزمان عندما استطاع امراء هرمز ، الذين كانوا أكثر قوة من امراء قيس ، من السيطرة على عمان بعد مواجهة المقاومة العنيفة من العمانيين .

ومنذ أن اقام الهرمزيون حصنهم في المدينة ، لم يعد يسمح لأية سفينة تجارية قادمة من الصين تفريغ حمولتها في ميناء صحار . ولعل هذا الحصار القوي الذي فرضه الهرمزيون على صحار كان مشدداً جداً ، إذ أن التنقيبات الاثرية في المدينة لم تكشف عن قطعة واحدة من الخزف الصيني الذي يعود تاريخه إلى الفترة ما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين ، وهذا يثبت ما ورد آنفاً حيث لم يكن بالامكان لاية سفينة قادمة من الصين أن تصل ميناء صحار بسبب ذلك الحصار المنيع على ميناء المدينة .

وقد ترتب على هذا الحصار أن تجارة المدينة اصبحت معدومة ، مما أدى إلى التدهور الاقتصادي ، حيث ترك التجار منازلهم وتجارتهم التي كانت مزدهرة ، وتخلى اصحاب الأراضي عن زراعة أراضيهم . وبذلك كان لهذا الحصار الاثر الكبير في تدمير المدينة وتخريب حضارتها .

وحسبما ورد في كتاب (عجائب الهند) حدث ما كان يخشاه أهالي صحار قبل حدوثه بأربعة قرون ، حيث كان اثرياء المدينة وتجارها يتوقعون ذلك ويرددون القول بأنهم سوف تسلب تجارتهم ومواردهم الأخرى بحيث لا تعود السفن ترسو في ميناء صحار وتفرغ حمولتها ، مما سيؤدي إلى حرمان المدينة وسكانها من مصدر عيشهم الرئيسي ألا وهو البحر . ولسوء الحظ ، جرت الأحداث حسبما توقعوا وعلى عكس ما تمنوه .